سخرية أبي العـــلاء المعـــري من المجتمع (الشعراء و الأدباء والكتاب و اللغويين في عصره)

أ . عبدالله الصغير ـ كلية التربية درج ـ جامعة الزنتان

المقدمـــــــــة :

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين محمد بن عبد الله الرسول الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين .

من خـــلال هذا المقال الأدبي الذي نتناول فيه شعر السخرية عند أبي العلاء المعري (1) منه نحاول الكشف عن هذا الجانب من شعره الذي اختص به أو خصصه للسخرية من المجتمع الذي عاش فيه، الذي يراه علاج لما يمر به عصره من تدني مكانة الشعر والشعراء والأدباء والمثقفين في المجتمع، حيث أصبح فيه الشعر وسيلة للتكسب عند العديد من الشعراء والكتاب والمثقفين في عصره، الذين جعلوا الشعر طلاسم والغاز بعد ما كان عند الأوائل في المراتب العليا ، ولهذا كان المعري متهكماً ساخراً من هذه الطبقة ناقداً للأحوال التي مر بها عصره من الانحطاط في الأدب والشعر .

ومن خلال الاطلاع علي بعض القضايا التي تناولها المعري في شعره الساخر للطبقة المثقفة في مجتمعه الذي عاش فيه يمكن حصر المشاكل التي مرت بها النخبة المثقفة في المجتمع وهي التي :

1 سخر المعري من الشعراء المتبجحين بالشعر والجاهلية للفتية الذين ادعوا الشعر فقالو مالا قيمة له وهم شعراء الرجز في نظره .

2 ـ شعراء التكسب يراهم المعري وصمة عار وإهانة للشعر والشعراء وهو ما جعله يتعدى بسخريته على أهل الأدب بل يسخر من كل فئات المجتمع في عصره .

3- سخرية المعري من أهل النحو واللغة وجعلهم السبب في تعقيد مسالك النحو واللغة وهم من جعلوا ذلك طلاسم والغاز بعد إن كان عند الأوائل من المثقفين حلو يلبي حاجات النطق ولم يكن به تكلف وتصنع .

نبذة مختصرة عن حياة أبـــي العلاء المعري :

أبو العلا المعري هو : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعروف بالمعري ، نسبة إلى بلده (معرة النعمان) (2) التي قال فيها هذه الأبيات عندما رحل إلى العراق وهـــــى :

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِي وَإِنَّمَا رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيَالِ

فَـهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعَرَّةِ قَطْرَةٌ تُغِيثُ بِهَا ظَمْآنَ لَيْسَ بِسَالِ(3)

ولـد المعري سنة 363 هـ من أسرة عربية الأصل ، عريقة في العلم والأدب والمعرفة ، والشعر والوجاهة ، فسليمان بن أحمد بن سليمان جده قاضى معرة النعمان كما كان والد أبي العلاء شيخاً فاضلاً من أهل العلم والوجاهة في بلده والشام كافة إلى جانب الشعر وهو أول من أخذ الشعر على لسانه ، كما كانت جدته لأبيه - أم سلمي- (4) التي تأثر بها في حياته العلمية والأدبية ، والتي روت له العديد من - الحديث النبوي الشريف الذين سمعه منها أبو العلاء المعري وتتلمذ على يديها - (5) حيث قال في ذلك ابن النديم إنها من الشيوخ الذين روي عنهم الحديث ، اعتل أبي العلاء في صغره بعلة الجدري وعمره لم يتجاوز الأربع سنوات ، العلة التي أفقدته حاسة البصر سنه 367 هـ إلا أن ما فقده من بصر عوضه ببصيرته المتفتحة ، فقال الشعر وعمره إحدى عشرة سنة حيث قال في ذلك :

قالوا العَمى مَنظَرٌ قَبيحٌ قُلنا بِفَقدي لَكُم يَهونُ
تَاللَّهِ ما في البِلادِ شَيءٌ تَأَسى عَلى فَقدِهِ العُيونُ (6)

لم يكتفي شاعرنا بالثقافة العربية من شعر ولغة فحسب ، بل أظهر عناية بالثقافات الأجنبية المترجمة في عصره وخاصة الفلسفة اليونانية والهندية التي تتلمذ فيها على مشاهير علما العرب في ذلك الوقت ، كما زار العديد من الأديرة التي اتصل فيها بالرهبان في صوامعهم حتى يستقي من معارفهم (7) ، ومن شدة شغفه للعلم شد الرحال إلى بغداد عاصمة العلم والخلافة الإسلامية وموطن الشعر والشعراء سنة 398 هـ ، والتي أقام بها سنة وسبعة أشهر ذكر فيها أبيات شعريه هي :

وردنا ماءَ دجلةَ خيرَ ماءٍ وزرنا أشرفَ الشجر النخيلا
وأبنا بالقليل وما استقينا وغاية كل شيء أن يزولا (8

وفي الفترة التي ارتحل فيها إلى العراق ساءت الحياة السياسية والاجتماعية كثيراً فكانت بغداد مسرحاً للفتن والقلاقل وسوق للصفقات عندما سيطر عليها جند الاتراك الذين عاثوا في الأرض فساداً ، كما وافق يوم وصوله إلى بغداد وفاة (الشريف الطاهر والد الشريف الرضى) (9) الذي حضر عزائه وقال في تأبينه قصيدة جيدة أظهرت براعته في فن الشعر أمام الحاضرين، ومن خلال ذلك تنادى أهل العلم والفصاحة من بغداد للتعرف على هذا الضرير الغريب الذي تناقلت أخباره الركبان القادمة من بلاد

الشام ، فلم يلبثوا أن أقـــروا له بأنه أعجوبة زمانه في الفصاحة والعلم والنباهة التي كان لها الأثر الواضح في تشكيل حياة أبى العلاء، والتي فيها الإحساس بالغربة وسوء الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية في بغداد مع ركود صناعة الشعر والثقافة من الأسباب التي جعلته يتكسب بالشعر لطلب الرزق والتي تعد من العوامل الاجتماعية والجسدية التي أثرت في المثقفين والشعراء على عكس ما كان يطمع فقال فيها :

أَلَا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ مَا أَنَا فَاعِلُ عَفَافٌ وَإِقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَنَائِلُ

وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي فِي الْبِلَادِ فَمَنْ لَهُمْ بِإِخْفَاءِ شَمْسٍ ضَوْءُهَا مُتَكَامِلُ (10)

والعامل الثاني وفاة أبيــه، ومن بعده أمه التي حزن عليها كثيراً ، السبب الذى جعله يعتزل الناس منقطعاً للعلم والزهد في الدنيا حيث عاش باقي حياته نباتياً لا يأكل إلا ما يخرج من النبات، ولا يلبس إلا ما خشن من الثبات، ولا يخرج من بيته إلا قليلاً ، كما تذكر العديد من المصادر أنــه لم يتزوج أبداً حيث قال في المرأة وحمل عليها كثيراً إنها السبب في تعاسة الأجيال ، ولولا المرأة والولادة لتوقف النسل ، وارتاحت البشرية من هذا العناء، فطالب بقطع النسل حيث قال

هذا جناه أبى علـــي وما جنيت على أحد (11)

وقال - أيضاً - إن المرأة هي السبب في تعاسة الأجيال ووصفها بأنها المعين على النسل وعلته، وهي خطيرة رقيقة قاتلة، وإن سرقوها في ضعفها، فحذر منها بقوله :

وأري العروس نجحت في دارها كمعرس الأساد فى الأخذر

وما الغوانى الغوادى فى ملاعبها إلا خيالات وقت أشبهت لعب 12

وفاته : عاش أبو العلاء المعري عمراً طـويلاً ناهز الخامسة والثمانين سنة قاسية، فكان إلى جانب العمى ضعف سمعه، وفى آخر حياته عجز عن القيام فكان لا يقوم إلا بمساعدة أحدهم، وكان ابن أخيه مكلفاً به في فترة العجز الذى ذكره في أبيات شعريه منها :

أجدك ما تركت وأنت قاضي تعهد مقعد أعمى أصم (13)

وله أبيات في الطبيب الذى كان يعالجه أيام مرضه وعجزه يقول فيها :

أعبد الله خير في حياتي وطول زمانها موت مريح

فعللني لتسقينى فذرني لعلى أسترح وتستريح (14)

تُوفـــي أبو العـــلاء المعري سنة 449 هـ فـــي عهد القائم بأمر الله (العباسي) (15) وقيل : إنه وقف على قبره أربعة وثمانون شاعـــراً يرثونه ، كما ختـــم القـــرآن على قبره مائتا ختمة ، رحم الله شاعرنا رحمة واسعه .

إطلالـــة على الســـخرية عند أبي العلاء المعري ، يـرى بعض الأدباء أن السخرية ســـلاح يحمي الروح من ضعفها ، كما أن الأدب الساخـــر لـون صعب الأداء يتطلب مرجعيةً خاصةً وذكاءً حادً وبديهةً حاضـــرةً ، وهو وليد المرحلة العمرية الأكثر نضجاً، ولعلّ هذا سبب في خلو شعر المعري من السخرية العميقة في بداية حياته ، ووجودها بكثافة في إنتاجه الشعري بالمراحل المتأخرة من عمره، مع العلم أن المهارة والرفاهة هي أهم سمات الكتابة الساخرة ، فالمهارة هي التي تبقي الشعرة الفاصلة بين المسموح به والمنهي عن تصريحه ، وهي التي تفتح الإعلان المباشر وتؤثر التلميح الذكي عند المواقف والآراء . إن شاعر السخرية (هو الذي يضع يـــده على الإيقاع الروحي لمن يعيشون حوله ، وهذا يكون واحـــداً عند معظم شعوب الأرض، كما أن السخرية عند الكثير هي إحـــدى الطرق للتعبير عن عدم الرضا (16)

كما في هذا البيت الشعري الذي يصف الشاعـــر نفسه باسلوبه الساخر الذي تحدث من خلاله عن اسمه حيث قال:

دعيت أبا العلاء وذلك مبين ولكن الصحيح أبا النزول (17)

والسخرية عند أبي العلاء موقف واضح من العالم المحيط به، وحيث تأتي السخرية من أمثاله فقد نال بها الإعجاب إلى درجة عالية، أذ ليس هناك ماهو أشد من سجون المعري الثلاثة حين يقول :

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن النبأ الخبيث

لفقدي ناضري ولزومي بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث (18)

حيث إن هذه السجون التي تحدث عنها الشاعر يمكن أن تؤدي إلى مزاج سوداوي، ولكنها أضرته وقادته إلى الحكم العادل على نفسه مع الميل الكامن فيه إلى الفلسفة .

وأساليب السخرية في شعر أبي العلاء من الطبقة المثقفة في عصره حيث اتسم أسلوب السخرية عند أبي العلاء بعمق الفكر وحسن المشاعر ورصانة الخلق الفني فكانت لغة الشعر نتيجة لصدقه الإنساني ، وإخلاص معاناته جسر من الألفة يكنها أبو العلاء بنفوسنا من المتلقيين الذي يظهر من خـــلال رأي بعض الباحثين الذين تناولوا تلك السخرية العلانية ، كل من وجهة نظره، والتي لم يشر إليها إلا في رسالة الغفران من مجمع الإبداع العلني حيث يقول في ذلك الدكتور طه حسين: " أما السخرية فحسبك أن تسمع خلاصـــة القصص الطويلة في الحديث الذي ساقه أبو العـــلاء للدخول على ابن الفارح في الجنة " (19) ، وأما الدكتور أحمد مندور فإنه بعد أن يفـــرق بين أنواع الإضحاك لدى موليير، وتشارلي شبلن ، و ديجارد ، ووايليه حيث يخلص إلى أن صنيع

أبي العلاء ليس من تلك الأنماط فيقول :" واضح أن ما نسميه سخرية أبي العلاء ليست شيئاً من كل هذا، وإنما هي عبث بأس عبث به رجل استوى عنده كل شيء ، لأنه لا يؤمن بغير الله إلا أن تلك الروح الساخـــرة لم تبدأ في الغفران ؛ بل تجلت - أيضا - في شعر اللزوميات" (20)

ومن البديهي أن المعري في اللزوميات لم يكن متعمداً فطبيعته الفنية والنفسية ومجالس لغته جميعاً تنفي هذا الهزل المتعمد ، ولذلك فإن روحه الساخرة لم تكن فرحاً عارضاً ، وإنما انفعالٌ وقتي مغطى بالســـرور لا يعكس أكثر من لحظة ، ولا يكشف عن مكـــونات الروح والفكر فضلاً عن مطلقات الوجـود ؛ ولكنه ذلك الطبع العلاني يتخذه الرجل أحيانا للكشف عن موقفه الروحي المدرك من همومه الكثيرة التي شغلته وعالجها بتناولات ، منها ذلك النمط الساخر المتهكم، ويفرق المازني بين السخرية والهجاء بما يكشف عن اختلاف السمة النفسية والإبداعية لكل منهما عن الآخر فيقول : " ما الشعر حتى يسخر فيتناول بعد ما بين الأشياء والطبيعة، ويركض في حلبة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ووصول الكمال من ناحية أخرى" (21) ، فالفئات الثقافية التي ســـخر منها المعري في المجتمع والعصر الذي عاش فيه كانت أغلبها من طبقة الكتاب والشعراء والمثقفين في المجتمع ، وأغلب هؤلاء من كان المعري يرى فيهم جهل وقصور في الأدب والثقافة، ومن كانوا يـــرون في الشعر والأدب وسيلة للكسب والتقرب للخلافات ولوزراء وأهل الحكم والكراسي في الفترة التي عاشها المعري وصفهم كالآتـــــي :

1- **السخرية من المتبجحين بالعلم وهم في رأيه لا يعلمون** . فالمعري يسخر من الجاهلين الذين يعيشون نعمة الجهل معتدين بأنفسهم عن عذاب الفكر واستخدام العقل حيث يقول على لسان (طرفة بن العبد) وددت أني لم أنطق مصرعا ولا دخلت الجنة مع الهمج والطغام، وكذلك سخر من أدعياء الشعر والضعاف الذين قالوا مالا قيمة له ومثلهم بالرجاز ، ولعلهم بالذين اختاروا بحر الرجز لقصائدهم حيث لا ينجون من سخريته وهم المتبجحون الذين يعطون انفسهم مالا يستحقون ومثل لهؤلاء بأبي القاسم الذي ذكره المعري في بيتين من الشعر جعله نموذجاً لكثيرٍ من بني البشر حيث يقول :

هـــذا أبوالقاسم أعجوبة لكل من يدري ولا يدرى
لا ينضم الشعر ولا يحفظ القرآن وهو الشاعر المقري (22)

يرى المعري في هذه الأبيات حيث تتضح السخرية من أهل هذا المجتمع الذي يرفع الجاهل إلى المراتب العليا مع المثقفين موضحاً في أبياته أنه غير ملم بالعلم والثقافة فهو

لا يحفظ القرآن ولا ينظم الشعر . فمعظم الناس عند المعري غير عادلين أو منصفين لا يعطون صاحب الحق حقه ، لقد ضاق بأمثال هؤلاء واشتاق إلى بشر يعطون الحق لأصحابه فيقول :

من لي أن أقيم في بلد أذكر فيه بغير ما تحب
تضن بي الناس في الديانة العلم وبيني وبينهم حجب
أقررت بجهلي وادعى فهمي قوم وأمرهم عجب (23)

في هذه الأبيات يتضح رأي المعري في المجتمع الذي لا يهتم إلا بالمظاهر الخادعة ، ولعل هؤلاء الناس الذين في زمن المعري أشبه بالناس في زمننا هذا، الناس الذين تشغلهم المظاهر دائماً ولا يعبرون لذلك فسخر من أناس زمانه وفضل عليهم الحجر فقال :

يحسن مرأى لبني آدم وكالهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم من بر ولا ناسك إلا إلى نفع له يحذب
أفضل من فضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب (24)

2 . **السخرية من رواة الشـــــعر** . يعقد أبو العلاء في رسالة الغفران مجلساً ظريفاً يسخر فيه من طريقة بعض الرواة في الرواية لنصوص الشعر حين يذكر " ابن القارح في رسالته ببيتين من شـــعر البكري حيث يهتف هاتف قائلاً : " أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر فيقول الشـــيخ : نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقاتهم ويتوارثونه كابراً عن كابرٍ حتى يصلوا إلى أشياخ العرب فينسبوه لشعر ميمون بن قيس) 25 ، والموقف الآخر يعرض المعري كوكبة من الشعراء يسألهم عما نسبه إليهم من الشعر المنحول الذي يتهمونهم به رواة الشعر المنحول فيقول فيه ما حدث بين ابن القارح والأعشـــــى يلتفت ابن القارح إلى الأعشى القيسي فيقول له :

يا أبا بصـــــير أنشدنا قولك أمـــن قلة بالأنقاء دار غير مملولة

فيقول الأعشى : " ما كان هذا مما صدر مني وإنك منذ اليوم لمولع بالمنحولات(25) كذلك تحدث عن أبينا آدم في رسالة الغفران عندما سأله عما نسب إليه من شعر قائل " يا أبانا قد روي لنا عنك شعر" (27) فيرد آدم - عليه السلام- إن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعض الحكماء، ولاكن لم أسمع حتى الساعة" (28) ، فيقول آدم في رده على المعري إنه لما كان في الجنة يتحدث العربية، ولما هبط إلى الأرض نقل الله تعالى لسانه إلى السريانية .

3 ـ **السخرية من الكــلام دون فعل :** لم يقل المعري شيئاً لم يطبقه في سلوكه، فقد كان قدوة في المطابقة بين القول والعمل حيث سخر كثيراً من هؤلاء الذين لا يعلمون بل يعتمدون على الدعاء وهم الذين يكثرون القول دون القيام باي فعل، ولعل ذلك ما قصد إليه في الصاهل والشاحج في رسالة الغفران حين هدد البعير البغل بالدعاء عليه فكان رد البغل : أما تخويفك إياي بالدعاء فإن الوحوش الراتعة تبتهل على سيد الغابة مذ كانت الخليقة وما لقى من دعائها إلا الخير، وكذلك صغار الطير يدعون على الباز والصقر وما يزداد بذلك الأرغبة في صيدهين ، وكذلك الضبا والأرانب وصغار الثعالب يرغبن في هلاك الذئب وكلب الصيد فما لهن سمع دعاء؛ ومن خلال ذلك يتضح لنا أن المعري لو كان بيننا اليوم لما احتاج أن يقول غير الذي قاله أمام العجز العربي الذي يكتفي بالدعاء على الأشرار والسفاحين بالموت حيث يسخر من هذا الاجماع العربي على الذل والهزيمة وتلقي الإهانة بصدور رحبة فيقول :

على الذم مجتمعين وحالنا من الرعب حال المجمعين علي الشكر

" ويسخر من الجهل والتقاليد فتجده يسخر من الجهل الذي ساد الناس لدرجة أنهم صاروا معها يتقبلون ما ترفضه العقول" (29) فقال ساخراً منهم :

قد صدق الناس ما الألباب تبطله حتي لو ضنوا عجوزاً تحلب القمر
أناقة هي م شاة فتحلبها عسى تغيث به الأضياف أو عمر (30)

أما المقلد الذي يتعمد النقل دون الفعل ولا يعمل فكره في شيء يعرض له فقال في ذلك :

في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقا لك ربي واحد أحد 31

لكن المعري مؤمن بقدرة الإنسان على الإبداع المتجدد بتجديد الحياة ويسخر من أولئك الذين يقولون في كل زمان ما ترك الأول للآخر شيئا ، فيسخر منهم قائلاً ليس أخطر على العلم من قول هؤلاء القائلين ما ترك الأول للآخر شيئا ، وقد عبر عن إيمانه ببيت شعري مشهور يقول :

فإني وإن كنت الأخير زمانه لآتي بما لم تستطعه الأوائل (32)

4 ـ السخرية من شعراء التكسب: لا يرى المعري التكسب من الشعر إهانة ووصمة عار على جبين الشاعر الحقيقي فيقول :

تكسب الناس بالأجساد فامتهنوا أرواحهم بالرزايا في الصناعات

ويقول أيضا ـ إذا ســـار سعر التكسب وانتشر بين الناس فإن الشعر الحقيقي يصاب بالكساد وقال :

يحق كساد الشعر في كل موطن إذا انفضت هذي العروض الكواسد

لقد تحــدّث المعـــري عن شعر التكسب في رسالة الغفران فقال :" إني كرهت أن أصور هذا النظـــم المتكسبين بالشعر الذين لم يتركوا سؤال الناس في وجوههم قطرة من الحياء ، ولا طول الطمع في أنفسهم أنفة من قبيح الأفعال"(34) ، ويرى المعري الشعر إذا جعل للتكسب لم يترك للشاعر حسباً ولا نسباً، وإذا كان لغير حسن في الصفات والنسب، والمعري يستوي المديح والهجاء عنده حين يبالغ المادحون في مدحهم بما لا يكون في الممدوح ، وعليه ن الحرية من شعر المديح جعلت المعري ينكر شعر المديح الذي قاله زمن شبابه، فقال عنه في مراحل نضجه مدحت نفسي فأنا أكرهه وأكـــره سماعه الآن، ومما مدح به نفسه في شبابه نعرض منه هذه النماذج وهـــــي :

لدي موطن يتبنا فيه كل سيد ويقصر على إدراكه المتطاول

وكذلك قوله :

تعاطوا مكاني وقد قدتهم مما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجتهم كما نبح الكلب ضوء القمر (35)

السّـــخرية مـــن الأدباء المتكبرين : يسخر المعري من أدباء عصره الذين يقودون الناس للكذب والذل من أجل التكسب حيث قال فيهم :

وما أدب الأقوام في كل بلدة إلى المميز إلا معشر الأدباء (36)

فـــي هذا البيت أعاد المعري كلمة أدب إلى معناها الأصلي وهو الدعوة للطعام كما كانت تستعملها العرب القدماء وحيث قوله : وكل أديب سيدعى إلـــى الـرديء من الأدب إلا أن الفتى متأدب (37) ، ويرى المعري أن صناعة الأدب عندما تنزل للسوق وتعرض للبيع للطغاة والأغنياء فإن فيها إذلال وفقد للهيبة، ومن ذلك تتضح نصائح المعري للأدباء والكتاب والشعراء والمثقفين من خلال أشعاره حيث يأمل منهم الحفاظ والحرص علي مكانتهم وسمعتهم في المجتمع الذي ينظر إليهم بأنهم منارات ترشدهم إلى الطريق المستقيم والمحجة الواضحة .

ومن خـــلال ذلك نلاحظ أن المعري لا يقف عند السخرية على أهل الأدب، بل يتعدى ذلك للسخرية من المجتمع بكافة فئاته وجوانبه وخصوصاً المجتمع الذي لا يقدر المبدعين وأهل الصنعة حق قدرهم حيث نتساءل في أنفسنا هل هذا الواقع الذي كان وراء سخرية المعري في اللزوميات أم لا ؟ ، حيث قال : إنا لما نحن فيه من عنت فكلنا في تخيل ودلس

السخرية من بعض النحويين : لقد سخر المعري من اللغويين والنحاة الذين عقدوا علوم النحو واللغة عندما أحالوه إلى طلاسم والغاز بعد ما كان عند أوائلهم حلو المجتنى يلبي حاجة النطق ، ولم يكن به تكلف أو تصنع على يد أبو الأسود الدؤلي ولا الخليل بن أحمد، لكنه صار صعباً على يد الأخفش والكسائي والفراء وأمثالهم من النحويين الذين عقد لهم مجلس في رسالة الغفران ، وشغلهم بعديد المسائل النحوية والصرفية ، وجعلهم في الفردوس متحابين بعد أن كانوا في الدار الفانية متباغضين (38)

ومن المشاهد التي غلّ فيها المعري في رسالة الغفران صدر أحمد بن يحيى ثعلب من الحقد على محمد بن يزيد المبرد و سيبويه الذي أظهر من خلال ذلك سويداء قلبه من الضغن على الكسائي وأصحابه لما فعلوه به في مجلس البرامكة عندما شغل بعض النحاة في رسالة الغفران ابن القارح بكلامهم حتى ضاع منه صك الغفران فقال :" رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي قد امترس به قوم يطالبونه ويقولون له تأولت علينا وظلمتنا، فلما رآني أشار إلي بيده فجئته فإذا عنده طبقة منهم يزيد بن الحكم الكلابي فقال : ويحك أنشدت عني هذا البيت برفع الماء يعني قوله . (39)

فليت كفاف كان شرك كله وخبرك عني ما رتوى الماء مرتوي

ولم أقل إلا الماء بالنصب، وإذا بجماعة من المجلس كلهم يلومونه على تأويله فقلت لهم : يا قوم إن هـــذه أمور هيئة فلا تغفو الشيخ فإنه يكتب في القرآن المعروف بالمجة وإنه ما سفك لكم دماً ولا احتجب عنكم مالاً فتفرقوا عنه" (40)

لقد تجلّت سخرية المعري بالنّحاة حين صـــوّر فرح أهل الجنة بضياع النحو ؛ لأنهم سيتكلمون بلغة الأصول النقية التي لم تصلها يد النحاة وهي لغة القرآن الكريم، أي: اللغة العربية دون تحريف ولا زلل .

بهده الإشارات الدالة على السخرية يضع المعـــري أيدينا على شخصية اللغوي القائم على العودة إلى الأصول الصافية كما يؤمـــن بضرورة النحو من أجل سلامة اللغة ، إلا أنه أعلن في سخريته عدم ثقته بالنحو المستخدم بالتكلف والاصطناع والتأويل وتخيل جدلهم ونقاشهم مثل هدير الجمل .

الخاتمـــــــــــــة :

ونختم بحثنا هذا من خلال هذه اللمح التي شدتنا إلى السخرية عند المعري في رسالة الغفران من المجتمع والزمان الذي عاش فيه بأنه يمكن أن نستنبط النتائج التي استخلصناها من هذا البحث هي :

1 . المعـــري كان مفكراً يستخدم الشعر أكثر من كونه شاعراً بكل كيانه وجوارحه فليس له شغل ولا متعة ولا قضية إلا الشعر

2 . اتسم أسلوب السخرية عند المعري بعمق الفكر والمشاعر ورصانة الخلق الفني فكانت لفتة نتيجة الصدق الإنساني .

3 . سخر المعري من الجهل والتقاليد والعجز الذي عليه الكتاب والأدباء والشعراء في عصره مما أيقضنا لما نحن عليه اليوم من عجز عربي يكتفي بالدعاء وإصدار البيانات والاحتجاجات علي الأشرار والمعتدين بالموت ، ويسخر من إجماع كل الأمة على الذل والهزيمة وتلقي الإهانة بصدر رحب .

4 . يعارض المعري بشـــدة بيع الأدب والشعر والتكسب به عند الأمراء والأغنياء الذين ليس لهم معرفة بالشعر؛ لأن فيه إذلال وفقد للهيبة .

5 . سخر المعري من المجتمع الذي لا يقدر المبدعين والأدباء وأهل الصنعة وهو ما لمسناه في صرخة المعري اليائسة في اللزوميات.

6 . يحث المعري الشعراء والمثقفين عن التهيؤ للحديث في الأدب أن ينظر إليه بموضوعية حتى يحدث تطـــور حقيقي في الأدب الذي يتعـــدى النظرة السريعة إلى الوقفة المتأنية التي تكشـــف ما يدور في المجتمع الذي يعيش فيه الشاعـــر .

7 . يرى المعري في الشاعر أنه الطبيب المـــداوي لهموم الحياة والمجتمع الذي يعيش فيه لأنه موصول الفكر بما حوله وهـــو يتوقف على أبواب الحياة وقضاياها التي يجعل منها موضوعاً في الشعر، ومنها يترحل إلى أعماق الإنسان ويرى نفسه يحمل أمانة الكلمة وأعبائها ويجعل من نفسه المداوي لما يحدث من آفات تصيب المجتمع وهذا الأمر لا يكون إلا بالكلمة الهادفة التي تعرض نفسها في دائرة الإبداع الذي اختلطت فيه أدوات التعبير على الأفكار والمواقف .

الهوامش :

1 . معجم البلدان ياقوت الحموي - مج الخامس دار صادر بيروت لات ص : 156
معرة النعمان بفتح أوله وثانيه وتشديد الراء (هي الشدة، والمعرة كوكب في السماء والدابة ، وقتال الجيش دون إذن الأمير والنعمان هو ابن علي بن غطفان بن عمر بن بريج بن خزيمة، وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة ماؤها من الآبار بها الزيتون والتين) .
2 . وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق يوسف على الطويل ومريم قاسم الطويل ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1998
3 . رسالة الغفران لأبي العلاء المعري , تحقيق وجمع عائشة عبد الرحمن . دار المعارف , مصر 1963 ص 338.339
4 . تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان بين المتنبى وأبي العلاء ص387 ط 1 من 1971
5 . موسوعة ، أمراء الشعر الذى، من الجاهلي الى العباسي حسني جعفر، شتر شركة رناد ير س. بيروت – لبنان 1999 – ص 589
محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء اللقاء الراغب الاصفهاني مع 3 تلميذ الثقافة الدينة ط 2009 ص 130
. 6إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب شهاب الدين الحموي تحقيق عمران كارون الطباع قطر وسنة العارف للطباعة والنشر بيروت لبنان 1999 ص56
7 . معجم البلدان يقوت الحموي، مج، 5 ، لات، لاط، دار صادر بيروت .
8 . المرقصات والمطربات، إبراهيم محمد عبد الله، عبد الحميد صنداوي ، دار الفضيلة ص 219
9 . رسالة الغفران تح وش عائشة عبد الرحمن دار المعارف مصر سنة 1963 , ص 338-339.
10 . موسوعة شعر العصر العباسي، عبد عون الرضوان ج2 ط 1 ، 2001 دار أسامة للنشر والتوزيع ص 51 - 53.
11 . رسالة الغفران مرجع سابق ص 329
12. المتنبي وأبو العلاء المعري ، د صالح حسن البظي، رؤية في الإبداع الأدبي .
دار المعرفة الجامعية، مطبعة الاشعاع المصرية، 1990ص145
13 . رسالة الغفران مرجع سابق ص 341.
14 . جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ،ج1 ، منشورات مؤسسة المعارف بيروت، لبنان ص 194 – 195.
15 . أبو العلاء المعري رهين المحبسين، عاصم الجندي، ط1، دار المسيرة، لبنان سنة 1993 - ص 7 - 8.
16 . ديوان لزوم مالا يلزم جمع وتحقيق ، أمجد الطرابلسي، مجمع اللغة العربية ط2 دمشق 1982 ، ص 295
17 . رسالة الغفران، مصدر سابق 314
18 . المصدر نفسه ص 316
19 . المصدر نفسه ص 321
20 . كتاب الأخلاق أحمد أمين ، دار الكتاب العربي لات، لا ط بيروت لبنان 1974 ص

21 . فكرة في الفلسفة، أبي العلاء المعري، جبال حليب، المجمع العلمي الربي والعمرى دمشق، مطبعة الترفيه 1995 ص 19
22 . رسالة الغفران مصدر سابق ص 1
23 . المصدر نفسه ص 253
24 . الفصول والغايات ، محمود حسين زياتي ، دار الآفاق الجديدة بيروت 1938ص.
25 . رسالة الغفران مصدر سابق ص 309.
26 . المصدر نفسه ص 280 .
27 . سقط الزند أحمد الزين دار الفكر بيروت 1965 لات لا غ ص 202
28 . رسالة الغفران المصدر سابق ص.
29 . المصدر نفسه ص 254
30 . المصدر نفسه ص 263 .
31 . المصدر نفسه ص 267 .
32 . المصدر نفسه ص 274 .
33 .موسوعة أمراء الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العباسي، حسن جعفر نور الدين، نشر شركة رشاد برس ، بيروت، لبنان ، 1999 ص 581 – 585 .